لا شك في ان الكفاح الثوري صعب وليس نزهة؛ ولكنه ممكن، من جهة، وضروري من جهة اخرى.

ومثلما تحليل المجتمع يحتاج الى مرتكزات علمية، فان العمل الثوري يحتاج، بدرجة أعلى، الى أسس علمية في استراتيجيته، وفي تكتيكه. فالكفاح بشكل عشوائي، أو بشكل غير ناضج، يقدم الى السلطات الرجعية انتصارات سهلة تستفيد منها في تعزيز مواقعها؛ لذلك، أهم ما يطلب من الطليعة الثورية هو سعة الافق وعدم الوقوع في المنزلقات والمطبات التي تضعها القوى الرجعية نفسها، وعدم الفصل بين الامكانات التي تملكها الطليعة وبين الاهداف التي تضعها لنفسها.

لقد وضع الحزب الشيوعي الفلسطيني في وثائقه التي اقتطفنا بعض فقراتها هدفاً له، هو الاطاحة بالامبريالية البريطانية. هذا الهدف عظيم جداً، ولكن هل هو هدف أم أمنية؟ هل يستطيع الحزب، في الثلاثينات، الاطاحة بالامبريالية البريطانية؟ أم كان باستطاعة الامبريالية البريطانية الاطاحة به بسهولة؟ ما هي الوسائل التي كانت لدى الحزب في العشرينات، او في الثلاثينات، للاتصال الجماهيري؟ وماذا كانت استراتيجيته لتعبئة الفئات المستغَلة التي يعتمد عليها، فئات العمال والفلاحين؟ كانت وسائله بسيطة وليست مجدية لتحقيق الاهداف الكبرى الموضوعة. مثلاً، في العام ١٩٢١ خرج العمال اليهود الشيوعيون، في يافا، يتظاهرون في أول ايار (مايو)، وكانوا قد وزعوا منشورات، بالعربية والعبرية واليديشية، فاعتدى عليهم المتظاهرون الصهيونيون، وكانوا اكثرية، وطاردوهم، كما طاردتهم قوات الامن الحكومية (البريطانية)، فالتجأوا الى الحي الاسلامي. هناك، أشيع ان «اليهود» هجموا على المسلمين، وأوكلت «عقوبة» الشيوعيين الى الجمهور الاسلامي المضلَّل.

كان الحزب الشيوعي الفلسطيني يواجه في الثلاثينات قوى ضخمة، امبريالية ورجعية صهيونية ورجعية عربية. كان عليه ان يتحرك ضمن أرض معادية تماماً، لا يستطيع ان يلجأ فيها الى اي جهة. الداخل موصد امامه، والخارج موصد كذلك.

الا يجد العديد من الطلائع الثورية في العالم نفسه في نفس الوضع، او في وضع مشابه؟ مع ذلك يوجد، دائماً، مخرج. وهذا المخرج يفترض ان يوضع في معادلة زمانية ـ مكانية ـ اجتماعية. يجب على الطليعة الثورية، بالاستناد الى التحليلات التي قامت بها والتي ترسم المخطط الديناميكي للقوى الداخلية والخارجية الفاعلة في مجتمعها وللصراعات الطبقية الاساسية والثانوية الجارية، ان تجيب، بشكل علمي، على مجموعة كبيرة من الاسئلة: اين هي النقطة التي يجب ان تدخل منها الى هذه الصراعات؟ ما هي القوى التي يمكن ان تتحالف معها، والى اي مدى؟ الى اي درجة يكون التحالف لمصلحة القوة الاخرى؟ ما هو الهدف المرحلي الذي يمكن ان تحققه؟ ما هو المنظور المستقبلي لحركتها؟ هل تستطيع ان تضرب ضربة قوية تؤثر بها على مجرى الامور؟ ومتى؟ وكيف؟ وما هي فرص النجاح؟، الخ.

كل ذلك لا يمكن الاجابة عنه الا بالانطلاق من الحالات الخاصة، ولكن في اطار القوانين العلمية للتحول الاجتماعي. الحالة الخاصة لا تغير القوانين، ولا تخلق استثناءات، وانما اخذها في الاعتبار يعني الدقة في فهم قوانين التحول الاجتماعي، وتطبيقها، ويعني ان الطليعة الثورية لا تعيش ازدواجية القانون النظري والفوضوية التطبيقية.

مثل هذه الازدواجية عاشتها منظمات عديدة طرحت نفسها، في ظرف ما، كطليعة ثورية،